تحت الرعاية السامية لمعالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي

SOUS LE HAUT PATRONAGE DE MONSIEUR, LE MINISTRE DE L' ENSEIGNEMENT SUPERIEUR ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

الجـامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية - أدرار

L'UNIVERSITE COLONEl AHMED DRAYA-ADRAR

تنظـــــــم

ORGANISE

الملتقى الدولي الحادي عشر

Onziéme Colloque International

التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة

Le Soufisme en Islam et Les défis contemporains

أيام: ٩-١٠-١١ نوفمبر ٢٠٠٨

المحور الثالث:

العلاقة بين أهل التصوف وغيرهم

ملخص موضوع نظرية المعرفة عند المتصوفة ومواقف الفلاسفة والمتكلمين منها

فلالي بلقاسم
جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة

الملخص:

إنّ مسألة المعرفة والقوى العارفة، من المواضيع التي كانت محل اهتمام الفلاسفة والمفكرين منذ القديم، ولذلك كثرت الآراء فيها وتنوعت؛ حتى ظهرت بين العلماء نزعات مختلفة في مجال أفضل طرق المعرفة وأحسنها وأكملها، بل وأرفعها شأنا، وتجسدت تلك النزعات في مجموعة من الآراء والاتجاهات.

أول الآراء وأقدمها الاتجاه الحسي، الذي لا يعترف ولا يعد من العلم اليقيني إلا ما وقع تحت الحس، مع إلغاء سائر الطرق وعدم الاعتراف بنتائجها، بل والتشكيك فيها، إلى حد اعتبار كل ما نتج عنها ليس علما صحيحا ولا يعد في أحسن الأحوال إلا مجرد ظنا أو تخمينا، وكان لهذا الرأي أنصار منذ القديم.

وظهر اتجاه ثان مناقض للاتجاه الأول، وهو الاتجاه الذي اعتبر الحس أدنى درجات الإدراك الحيواني، بل لا يعد ما توصل إليه الحس علما صحيحا فضلا عن كونه يقينيا يمكن الاطمئنان لنتائجه، وقالوا بأن الإدراك الصحيح هو توصل إليه العقل النظري وحده، بعيدا عن الاستعانة بالحواس.

ثمّ ظهر رأي جامع بين الاتجاهين السالفين، وجعل للإدراك طريق حسي وطريق عقلي، وإن كان هذا الرأي نشأ ليوفق بين الرأيين السابقين، فإنه توصل إلى نتيجة هامة، وهي أن طرق ووسائل العلم والإدراك متعددة، ولا يمكن أن تنحصر في طريق واحد.

وجاء مفكرو الإسلام وفلاسفة المسلمين، متأثرين إلى حد ما، بالاتجاه الجامع على الخصوص، فجعلوا للإدراك طرق ووسائل وآلات متعددة، وأضافوا إلى طرق الإدراك طريقا ثالثا، تأثرا بالوحي الذي لم يجدوا له مكانا في طرق الإدراك السالفة الذكر، ولكنهم جنحوا في هذا الاتجاه إلى تفضيل طريق العقل، وفضلوه على الطريق الذي يدرك بها النبي الوحي، مما حدا بهم في دراساتهم للنصوص الشرعية، إلى عدم التورع في تأويلها من أجل أن توافق العقل عند التعارض أو الاختلاف.

وانفرد الغزالي برأي جامع، مناقض لاتجاه فلاسفة المسلمين، بل إنه شنع عليهم فيما توصلوا إليه، ورد عليهم ردا قبيحا اعتبره بعدها الفقهاء وأهل السنة حجتهم ضد خصومهم، بل عدوه المدافع عن الدين كله وأطلقوا عليه حجة الإسلام، ولكن ميله إلى التصوف جعله يتبنى نظرية أهل الباطن والكشف في المعرفة واعتبرها أفضل من طريق الفلاسفة وغيرهم، وأعلنها صرخة مدوية بين أهل التصوف، فوجدوا فيه ملاذا آمنا وانطلقوا باسم التصوف السني إلى حد ربما لم يقل به حتى الفلاسفة الذين فضلوا العقل على نصوص الشرع في حالات خاصة، ولكن المتصوفة أبطلوا الشريعة بأكملها، وجعلوها مختصة بالأنبياء موجهة إلى العامة، ومثلوا لها بما حصل في قصة موسى والخضر الوردة في القرآن الكريم، فالخضر عندهم خصه الله بعلم

الباطن بنما موسى خصه بعلم الأحكام الشرعية الظاهرة، وبان فضل الخضر على موسى منذ أن قال له [هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا]، وجعلوا للمريد إذا أراد أن يتعلم طريقا واحدا هو أن يسلم نفسه طوعا لشيخ الصوفية، ويفعل كل ما يطلبه منه، دون تردد أو شك، كما فعل النبي موسى مع الولي الخضر – عليهما السلام– وحدث ذلك كله حدث باسم الكشف.

نظرية المعرفة عند المتصوفة ومواقف الفلاسفة والمتكلمين منها

إن مسألة طرق المعرفة؛ والقوى العارفة، من أكبر المشاكل التي واجهت الفكر الإنساني، وقد ظلت حولها المعارك الطاحنة بين المفكرين عبر العصور[1]، لذلك كانت لهم فيها انقسامات، ومذاهب وآراء واتجاهات مختلفة ومتنوعة

أ/طرق العلم وأدوات المعرفة عند فلاسفة اليونان

1/الاتجاه الأول: وهو الاتجاه الذي يعتد بالحس وحده كطريق للعلم والمعرفة، ويمثله المذهب المادي البحث الذي (لا يؤمن البتة بما بعد الطبيعة، ويرى أن الإنسان داثر لا يخلد منه شيء، كانت المعرفة الحسية عنده كل شيء)[2]، وأن الوجود كله منحصر فيما وقعت عليه الحواس[3] فقط، فلا طريق عندهم للمعرفة إلاّ فيما يأتي الإنسان عن طريق (تلك الحواس وحدها؛ كما عند هيرقليطس[4])[5].

2/الاتجاه الثاني: وهو المذهب المناقض للأول، ولا يعتبر الحس طريقاً موصلاً للعلم والمعرفة، وتمثله بعض المدارس الفلسفية اليونانية القديمة التي (لم تعر الطبيعة أدنى اهتمام، وقد حاولت بناء صرح الفلسفة على الفكر المجرد؛ والبراهين المبنية على معطيات العقل النظري)[6] وبدرجة أقل أفلاطون[7] الذي جعل من المعرفة (أقرب إلى أن تكون تذكراً منها إلى أن تكون إدراكاً حسياً)[8] وأن القوة العارفة هي (البصيرة كما يرى)[9] .

3/الاتجاه الثالث: وهو من أوائل المذاهب التي عددت طرق العلم والمعرفة، وذلك أن الآراء تنشأ متضاربة، ثم يأتي الرأي الوسط، لمحاولة الجمع بينها، وذلك قصد التوفيق، والذي توسط بين الاتجاه

1– محمد غلاب: المعرفة عند مفكري المسلمين، الدار المصرية للتأليف والترجمة، بلا:تا، ص 208.

2– المصدر نفسه، ص220

3– ابن خلدون: المقدمة، ص618

4– هيرقليطس: من مفكري يونان الكبار الذين جمعوا بين حدة الملاحظة وعمق التفكير، ظهر بعد حكماء ايونيا الثلاثة في أفسس حوالي سنة 501ق.م. أنظر: حنا الفاخوري وخليل الجر: تاريخ الفلسفة العربية، دار الجيل، بيروت، ط2، 1982م، ج1،ص46

5– محمد غلاب: المعرفة عند مفكري المسلمين، ص20

6– حنا الفاخوري: المصدر السابق، ج1، ص49

7- أفلاطون: فيلسوف يوناني ولد في أثينا سنة: 427ق .م، من أسرة عريقة في النسب حيث كان أبوه من كبار الحكماء في عصره، لازم سقراط 18عاماً، فتح أكاديمية بأثينا عام 387ق.م، من أشهر مؤلفاته الجمهورية، توفي سنة 348ق.م، أنظر: حنا الفاخوري: المصدر نفسه، ص65-66، ومحمد عبد الرحمن مرحبا: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3، 1983، ص 112

8- حنا الفاخوري: المصدر نفسه، ص68

9- محمد غلاب: المعرفة عند مفكري المسلمين، ص20

المادي الحسي، والاتجاه الروحي، فنشأ الاتجاه الثالث، فجعل أن للمعرفة أكثر من طريق، وهي: (العقل والحواس كما يرى أرسطوا[1]، حيث جعل (للمعرفة وسائل وأدوات أساسها الحس وتاجها العقل)[2].

ب/طرق العلم وأدوات المعرفة عند فلاسفة المسلمين: جعل فلاسفة المسلمين للعلم والمعرفة طرقا متعددة، وأول من مثل هذا الاتجاه الفارابي[3] وابن سينا[4]، حيث جعلا أول طرق العلم (ما يصل إلى الإنسان عن طريق أدوات الحس التي تنطبع من المحسات في الحواس ثمّ يفعل العقل فيها فعله من التخزين والموازنة والتوفيق والتجريد، وثانيها: ما يصل عن طريق الفكر البحث الذي لا تتدخل فيه الحواس أدنى تدخل، وثالثها: ما يأتي الإنسان عن طريق التنسك الذي يرتفع بصاحبه عن علائق الحس وغواشي المادة)[5]، وهي عند ابن الطفيل[6] الضرب الثالث، وتكون طريقة الوصول إليها بأن (يلازم الفكرة في ذلك الموجود، الواجب الوجود، ثم يقطع علائق المحسوسات، ويغمض عينيه، ويسد أدنيه، ويضرب جهده عن تتبع الخيال، ويروم بمبلغ طاقته أن لا يفكر في شيء سواه، ولا يشرك به أحدا، ويستعين على ذلك بالاستدارة على نفسه، والاستحثات فيها، فكان إذا اشتد في الاستدارة على نفسه غابت عنه جميع المحسوسات، وضعف الخيال وسائر القوى الجسمانية؛ التي تحتاج إلى الآلات الجسمانية، وقوى فعل ذاته - التي هي بريئة من الجسم - فكانت في بعض الأوقات فكرته قد تخلص عن الشغوب، ويشاهد بها الموجود الواجب الوجود...)[7]، وعنده أن شيخه قد بلغها (وهذه المرتبة التي أشار إليها أبو بكر[7]، ينتهي إليها

1- أرسطوا طاليس: ولد في استاجيرة سنة 384ق.م من أسرة اشتهرت بالطب، التحق بالأكاديمية التي أسسها أفلاطون فتتلمذ على يديه مدة 20سنة، من أشهر مؤلفاته: كتاب ما بعد الطبيعة وكتاب السياسة، توفي سنة 322ق.م، أنظر: مصطفى غالب: أرسطوا، دار مكتبة الهلال بيروت، 1405هـ/ 1985م،ص15، وحنا الفاخوري، تاريخ الفلسفة العربية، ص80-81، ومحمد مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ص151-155.

2- محمد غلاب: المعرفة عند مفكري المسلمين، ص20

3- الفارابي: هو أبو نصر محمد بن أوزلغ بن طرخان الفارابي، ولد بتركستان بأسيا الوسطى حوالي 259هـ/872م، رحل إلى بغداد طالباً للعلم ودرس بها علوم مختلفة على جهابذة العلماء، ومنها بقي ينتقل حتى استقر بالشام سنة 330هـ/941م، من أشهر مؤلفاته: المدينة الفاضلة، وتوفي سنة 339هـ/950م،

أنظر: كتاب الفارابي أبو نصر محمد بن أوزلغ بن طرخان: المدينة الفاضلة، منشورات الأنيس، موفم للنشر،1987م، مقدمة عبد الرحمن بوزيدة، ص7-8

4- ابن سينا: هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن حسن بن علي بن سينا، ولد سنة 370هـ/980م، ببوخارى من أبوين إسماعليين (من الشيعة)، تبحر في مختلف العلوم وبخاصة منها اليونانية على يد كبار العلماء في عصره بمناطق مختلفة من البلاد الإسلامية، من أشهر مؤلفاته: الشفاء والنجاة، توفي سنة 428هـ/1036م، انظر: مصطفى غالب: ابن سينا دار مكتبة الهلال، بيروت، 1405هـ/ 1985م،ص17-25

5- محمد غلاب: المعرفة عند مفكري المسلمين، ص232

6- أبو بكر بن الطفيل[494-579هـ/1100-1193م] أنظر ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص410، وعمر بن حمادي: الفقهاء، ص630

7- رسالة حي بن يقضان، تح: عبد الملك السليماني وآخرون، الدراسات الأدبية،دار الفكر،ط3، 1970م،مطبوعة ضمن ثلاث رسائل، ج3، ص 105

8- هو الفيلسوف أبو بكر بن باجة المعروف بابن الصائغ [533هـ/1138م] القاضي عياض: ترتيب المدارك، المجلد الثاني، ج4، ص827، وابن سعيد: المغرب، ص260، وكحالة: أدب المغاربة، ص61

بطرق العلم النظري، والبحث الفكري، ولا شك أنه بلغها ولم يتخطها)[1].

والمعرفة التنسكية لها طريقتان، طريق ديني بمعنى طريق العبادة، وطريق فلسفي بمعنى عقلي، إذاً فهي تنتج عن إتباع (عقيدة دينية صادقة صادرة عن إيمان راسخ، أو عن معرفة فلسفية وصلت إلى الحق الأسمى)[2]، فمن يتبع طريق العقيدة الدينية فهو المتصوف، ومن يتبع طريق الفلسفة العقلية فهو الفيلسوف، ويتجلى هذا الفارق بوضوح بين الغزالي[450-505هـ/1058-1111م][3] وابن سينا[370-428هـ/980م-1036م]، فهذا الأخير وبناءاً على تجربة خاصة به في المعرفة العقلية الفلسفية (أراد أن يجتاز حدود العقل الذي وقف عند المعرفة المنطقية وإن كان قد نجح فيها نجاحاً باهراً وأن ينغمس بكل كيانه في بحار ذلك العرفان التنسكي الذي لا تتطاول هامة المنطق إليه)[4].

ولم يقف عند هذا الحد؛ بل تجرأ بعض الفلاسفة على الوحي الإلهي وكذا على مقام النبوة، فلم يجعلوه معجزة كما أراده الله عز وجل لنبيه -صلى الله عليه وسلم- وجعلوا الوحي مجرد طريق من طرق العلم فقط، حيث أن النّبي-صلى الله عليه وسلم- يتبع طريق الفضيلة والرياضة والتنسك (والتي تستطيع أن تكشف للنفس أسرار الكون، وبأن الإلهام الذي يخص الله به الأخيار من عباده هو أحد وسائل المعرفة البشرية وبأن النّبوة مكتسبة يفوز بها كل من توفرت فيه شروطها)[5]، وينسب ذلك للفيلسوف أبو نصر الفارابي[259-339هـ/ 872-950م] وهو (ما صرح به من سوء معتقده في النبوة[6]، وأنها بزعمه للقوة الخيالية

خاصة، وتفضيله الفلسفة عليها)[7]، ويلزم على قولهم باكتسابها تجويز نبي بعد سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– أو معه، وذلك مستلزم لتكذيب القرآن والسنّة [8].

ولم يكتف الفلاسفة بذلك بل تطاولوا حتى ادعوا الوحي لأنفسهم، وبذلك صار لا فرق بين العقل والوحي، ومعنى ذلك أن الوحي الإلهي الذي جاء به النّبي لا يكاد يختلف عن الوحي الفلسفي لذا الفيلسوف بحجة

أنهما (يتفرعان عن أصل واحد هو العقل الفعال، والفرق بين الوحي النبوي والوحي الفلسفي؛ أن الفيلسوف يبحث في المعقولات المجردة دون الحس، لكن النّبي يفضي على هذه المعقولات، لكن بالصورة المحاكية لها وبتشابيه

1– أبو بكر بن الطفيل: رسالة حي بن يقضان، ج3، ص87.

2– محمد غلاب: المعرفة عند مفكري المسلمين، ص265

3– الغزالي أبو حامد محمد بن محمد الطوسي[450–505هـ/1058–1111م]: أنظر ترجمته في: مقدمة الجزء الأول من كتابه إحياء علوم الدين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1358هـ/1939م، ج1، ص3–5

4– محمد غلاب: المصدر السابق، ص263

5– المصدر نفسه، ص262.

6– قال ابن خلدون في مدارك الأنبياء: ولا يلتفت في ذلك إلى ما يقوله ابن سينا من تنزيله أمر النبوة على أمر النوم في دفع الخيال صورة إلى الحس المشترك، المقدمة، ص609.

7– أبو بكر بن الطفيل: رسالة حي بن يقضان، ج3، ص93 .

8– طه الدسوقي: نظرية النبوة في الإسلام، دار الهدى، السيدة زينب مصر، 1401هـ/1981م، ص07

ورموز إذا أخذت على ظاهرها ناقضت الحقائق العقلية)[1]، وعلى هذا، وعند الموازنة بينهما، تكون النبوة المتسنية بالحس أدنى درجة من الفلسفة، فما كان منه إلا (تفضيله الفلسفة عليها)[2]، وبالتالي يصبح تأويل الوحي بما يوافق العقل جائزاً بل واجباً، ويصبح العقل (أصلا؛ والنصوص الصحيحة الصريحة تعرض عليها فتارة يعمل بمضمونها وتارة تحرف عن مواضعه لتوافق العقول)[3]، والعودة إلى الفليسوف في فهم ما أشكل من الوحي، كما أشار إلى ذلك ابن الطفيل في قصته الرمزية، التي قارن فيها بين الفيلسوف المتأمل بعقله، والعالم بالشريعة المتبع لوحي نبيه–صلى الله عليه وسلم–، (وعند ذلك، نظر إلى حي بن يقضان؛ بعين التعظيم والتوقير، وتحقق أنه عنده من أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فالتزم خدمته والإقتداء به، والأخذ بإشاراته فيما تعارض عنده، من الأعمال الشرعية؛ التي كان تعلمها في ملته)[4].

ج/ طرق العلم وأدوات المعرفة عند أهل التصوف

ازداد الفلاسفة إعجابا بأنفسهم إلى حد الغرور، فبعد إن ارتقوا بأنفسهم إلى مقام النبوة وتطاولوا على مجتمعهم، لزم وضع حد لتهافتهم، وتولى هذه المهمة الإمام الغزالي[450- 505هـ/1058-1111م]، وقد سلك في البداية نفس منهجهم وكاد ينجر وراءهم، ومر بتجربة تخبط فيها بين مذاهب شتى[5] في طرق العلم، ووقف على جميعها، وانتهى إلى التشكيك في نتائجها فشكك في أول الأمر في المعرفة الحسية[6]، ثم شكك في المعرفة العقلية و(جعل الإدراك العقلي متولداً من الإدراك الحسي ومسنداً إليه)[7]، وجعل للعلم طريقين: كما قسّم القوى المدركة على هذا الأساس إلى قسمين، قوى (مدركة من ظاهر، ومدركة من باطن)[8]، فكان الطريق الأول طريق حسي[9]؛ يحصل معرفة بظواهر الأشياء، وهو طريق الفلاسفة (وهذا هو في الأغلب نطاق الإدراك البشري

1- أحمد فؤاد كامل: مقارنة بين فلاسفة المغرب والمشرق العربيين، منشورات جمعية ميزاس الفكر،دار كريماديس للطباعة تطوان المغرب، ط1، 1961م، ص50

2- أبو بكر بن الطفيل: رسالة حي بن يقضان، ج3، ص93.

3- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج13، ص300، والقاضي عماد الدين أبو حسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار: متشابه القرآن، تح: عدنان محمد زرزور، دار التراث، القاهرة، بلا:تا، ص38-41.

4- رسالة حي بن يقضان، ج3، ص125.

5- مما قال فيه الفلاسفة (وأما كتب الشيخ أبي حامد الغزالي فهي بحسب مخاطبته للجمهور، تربط في موضع، وتحل في آخر، وتكفر بأشياء ثم تنتحلها) ابن الطفيل: المصدر السابق، ج3، ص93، بينما ينقل عن ابن العربي أنه قال فيه: شيخنا أبو حامد، دخل في بطون الفلاسفة، ثم لما أراد أن يخرج منهم؛ فما قدر) ابن تيمية: درأ تعارض العقل والنقل، دار الفكر العربي، بيروت، ط2، ج1، ص8، وقال فيه ابن رشد الحفيد (أنه لم يلزم مذهبا من المذاهب في كتبه، بل هو مع الأشاعرة أشعري ومع الصوفية صوفي ومع الفلاسفة فيلسوف، وحتى أنه كما قيل: يوم يمان إذا لقيت ذا يمن::وإن لقيت معديا فعدنان) فصل المقال، ص51.

6- مصطفى غالب: الغزالي، دار مكتبة الهلال بيروت، 1405هـ/1976م، ص 44-45

7- محمد الفاضل بن عاشور: المحاضرات المغربيات، ص169

8- أنظر:معارج القدس في مدارج معرفة النفس،دار الأوقاف بيروت، ط1980،4،ص41

9- المصدر نفسه، ص41- 44

الجسماني وإليه تنتهي مدارك العلماء، وفيه ترسخ أقدامهم)[1]، وطريق غير حسي، وهو طريق الأولياء والأنبياء، لأنّه يتم بجود إلهي وكمال فطري[2]، وأعلن تهافت الفلاسفة، وذلك لأن معارفهم محصلة من طريق الحس، للتقليل من شأنها ووضع حد لغرورهم، وبالتالي النيل من مقامهم والحط من مكانتهم العلمية،

وتقديم فئة أخرى بدلهم سالكا في ذلك نفس خطواتهم، ولجأ مضطراً إلي أهل التصوف والكشف، وأعلن أن الطريق الموصل إلى العلم اليقين الذي لا مجال فيه للشك والارتياب؛ هو طريق الإلهام الذي ينقسم عنده (إلى قسمين: إلهام يدري الإنسان كيفية حصوله ومصدره، ويقف على السبب الذي منه استفاد منه ذلك العلم؛ ويسمى إلهاماً وكشفاً ونفثاً في الروع، وهذا النوع من الإلهام يختص به الأولياء والأصفياء، أما النوع الثاني من الإلهام فهو الوحي الذي هو خاصية الأنبياء وحدهم)[3]، فاختار الغزالي إذن طريق الكشف[4] كأفضل طريق للعلم والمعرفة، وكما جعل ابن سينا من الفلاسفة في درجة تقارب درجة النبوة؛ بالمثل جعل الغزالي من المتصوفة في أعلى الدرجات حيث صنفهم بعد الأنبياء مباشرة[4]، ولا بد للمتعلم أن يكون له منهم شيخا يكون معلما له (ولا بد للسالك من شيخ يؤدبه ويرشده إلى سبيل الله تعالى، إن الله أرسل للعباد رسولا للإرشاد إلى سبيله، وشرط الشيخ الذي يصلح أن يكون نائبا لرسول الله–صلى الله عليه وسلم– أن يكون عالما، ولكن لا كل عالم يصلح للخلافة، وإني أبين لك بعض علاماته، على سبيل الإجمال، حتى لا يدّ عي كل أحد أنه مرشد، فنقول: من يعرض عن حب الدنيا؛ وحب الجاه، وكان تابعا لشخص بصير، تتسلسل متابعته إلى سيد المرسلين–صلى الله عليه وسلم–...)[5]، ولا يمكن ذلك إلا أن يكون ذلك الشيخ من أهل الزهد والتصوف.

وبهذا فُتح المجال أمام بعض المتصوفة الذين بدؤوا بالكشف وانتهى بهم الأمر فيما بعد، حتى تطاولوا على الوحي وصرحوا بما عجز على التصريح به الكثير من فرق أهل الأهواء والبدع، فذهب (قوم من الزنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هدم الأحكام الشرعية، فقالوا: هذه الأحكام الشرعية يختص بها العامة والأغبياء، وأما الأولياء والخواص فلا حاجة لهم إلى تلك النصوص...فتتجلي لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية؛ فيقفون

1– ابن خلدون: المقدمة، ص122– 123

2– حمانة بخاري: التعليم عند الغزالي، ص73

3– المصدر نفسه، ص73

4– أنظر شروط حصول الكشف الخمسة عند الغزالي:وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصور لخمسة أمور[أحدها لنقصان صورته...والثاني لخبثه...، والثالث لكونه معدولا به عن جهة الصورة إلى غيرها...والرابع الحجاب مرسل بين المرآة والصورة، والخامس الجهلة بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة... فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن يتجلى فيه حقيقة الأمور كلها، وإنما خلت القلوب عنها لهذه الأسباب الخمسة...، معارج القدس، ص93–95

5– وهذا طبعاً في انتظار ابن رشد الذي أعاد الفلاسفة إلى أعلى الدرجات الاجتماعية والعلمية (إذا كان العدل في أفضل أصناف الموجودات أن يعرفها على كنهها؛ من كان معدا لمعرفتها على كنهها وهم أفضل الناس)، فصل المقال، ص52، ويصفهم بقوله: برهانيون فلاسفة أدلة صحيحة وعقول ذكية، انظر: أحمد فؤاد كامل: مقارنة بين فلاسفة المغرب والمشرق، ص52.

6- الغزالي: رسالة أيها الولد، تح: عبد الملك السليماني وآخرون: الدراسات الأدبية، دار الفكر، ط3، 1970م، مطبوعة ضمن ثلاث رسائل، ج3، ص150-151

على أسرار الكائنات ويعلمون الأحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات)[1]، هذا في مجال الشريعة، أما في مجال العقيدة فإن انحرافهم كان أخطر وأشد، حيث انتهى ببعضهم إلى القول بالحلول والإتحاد[2] أو بوحدة الوجود وعلى رأسهم ابن عربي[3][638هـ/1240م].

ومن جهة ثالثة ارتكب أهل التصوف جناية في حق التعليم بما فيهم الغزالي، سواء كان ذلك عن قصد أو عن غير قصد (حينما زعموا لهم أن المعرفة لا تكتسب بالجهد والبحث والملاحظة والتجارب؛ بل هي نوع من المعجزات)[4].

ولكي يوضع حد لمثل هذه الانحرافات والمزالق الخطيرة؛ لابد من وضع منهج علمي وتعليمي قائماً على قواعد سليمة وطرق صحيحة للعلم والمعرفة، ثمّ قادراً على إخراج وإقصاء الطرق غير العلمية الموصلة إلى تلك النتائج الوخيمة، وبذلك فقط يتم وضع حد للتلاعب بعقول الأجيال لأغراض أحياناً تربوية حسنة، وأحياناً أخرى سياسية خبيثة، وهذا عين ما قصد إليه ابن تومرت، عندما وضع منهج علمي وتعليمي متميز، كان بمثابة ثورة على كل المناهج القائمة في عصره، وخاصة المنهج الكشفي، فكان الغزالي جزء مقصود، ولم تشفع له أستاذيته له، لأن الخطأ جسيم وخطير، فأعلن أن للعلم ثلاث[5] طرق فقط لا أثر فيها لما ادعاه الغزالي .

د/ طرق العلم وأدوات المعرفة عند المتكلمين

جعلوا للعلم والمعرفة طرقا ثلاثة[5]، كلها صحيحة وموصلة في مجالها إلى علم يقيني غير ظني، لا يجوز إنقاص

1- القرطبي أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربي القاهرة، 1387هـ/1967م، ج11، ص40

2- أصل القول به عند طوائف من الشيعة يسمون الغلاة، تجاوزوا حد العقل والإيمان في القول بألوهية الأئمة: إما على أنهم بشر على اتصفوا بصفات الألوهية، أو أن الإله حل في ذاته البشرية وهو قول النصارى في عيسى-صلوات الله عليه- ولقد حرق علي بالنار من ذهب فيه إلى ذلك، ابن خلدون المقدمة، ص248، وذكر طائفة باسمه يقولون بالحلول وجاء الإسماعيلية منه يدّعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول، المصدر نفسه، ص402، ثم انتقل هذا القول محاكاة إلى مذهب من الصوفية المتكلمين في الكشف وفي ما وراء الحس وظهر من الكثير منهم القول على الإطلاق بالحلول والوحدة فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة وحلول الإله فيهم، المصدر نفسه، ص402، وأهل التصوف الذين وضعوا دعائم نظرية الاتحاد والفناء التي تعد غاية الوصول إلى الله، وأظهروا هذا القول "إما بمعنى الحلول فيها، أو بمعنى أنه هو عينها وليس هناك غيره جملة ولا تفصيلا" في القرن الثالث الهجري المحاسبي [242هـ/856م]، وذي النون

المصري [240هـ/854م]، والبسطامي [260هـ/873م]، المصدر نفسه، ص218، ثم يأتي بعدهم الحلاّج [309هـ/921م] ليقول بحلول اللاّهوت في الناسوت، وقوله أنا الحق، إبراهيم مذكور: في الفلسفة الإسلامية، ج2، ص69، ثمّ ويأتي القرن السادس والسابع "بالسهروردي المقتول[586هـ/1190م]، ومحي الدين بن عربي[638هـ/1240م]، ثم ابن سبعين[668هـ 269م] القائل بالوحدة المطلقة"، حنا الفاخوري: تاريخ الفلسفة العربية، ج1، ص310، وللمزيد انظر المصدر نفسه، ص309-311، وابن خلدون: المقدمة، ص619، وفليب حتي وآخرون: تاريخ العرب مطول، دار الكشاف، ط4، 1965م، ج2، ص524.

3- من قوله في ذلك: العبدُ ربٌّ والربُّ عبد يا ليت شعري من المكلف

إن قلتُ عبد فذاك حق وإن قلتُ ربٌّ أنى يكلف

الفتوحات المكية، تح: عثمان يحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1392هـ/ 1972م، السفر الأول، ص42.

4- ابن رشد: مناهج الأدلة (مقدمة محمود قاسم)، ص08

5-تم التركيز هنا على فترة ما بعد الغزالي، لأن مرحلته جمعت بين ثلاث اتجاهات، الإتجاه العقلي الفلسفي، والاتجاه الباطني الصوفي، والاتجاه الكلامي.

واحد منها ولا الزيادة عليها، ولا حتى الخلط بينها، وكانت له مناظرة في هذه المسألة مع فقهاء المرابطين بأغمات (فكان مما سألهم عنه-رضه- أن قال لهم: طرق العلم هل هي منحصرة أم لا ؟ فأجاب مقدمهم ...أن قال: نعم منحصرة في الكتاب والسنّة والمعاني التي نبهت عليها، فقال الإمام المهدي -رضه- : إنما سئلت عن طرق العلم هل هي منحصرة أم لا، فلم تذكر إلاّ واحداً منها، ومن شرط الجواب أن يكون مطابقاً للسؤال، فلم يفهم عنه وعجز عن الجواب...)[1].

وهذا ما يؤكد الصراع الذي قدمنا له أنفاً حول طرق العلم والمعرفة، وقد تجلى لنا هنا في هذه المناظرة؛ مع فريق من علماء المرابطين لا يعرفون ولا يعترفون إلاّ بطريق واحد للعلم والمعرفة وهو الوحي وما نبه عليه فقط، فانحصر بالتالي عندهم فيما أتى من هذا الطريق فقط، بمعنى الكتاب وهو القرآن والسنة، والمعاني التي نبهت عليها بمعنى الفقه أو القياس أو ما أخذ من طريقه .

فحصر العلم في طريق واحد قصور كبير عما سواه؛ فأخذ يبين طرق العلم وحصرها في طرق ثلاث[2] هي:(الحس والعقل والسمع)[3]، والدليل الذي اعتمده لتحديد هذه الطرق الثلاثة، هو قوله تعالى:* وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا *[4]، ويعلق بقوله: (فهذه قسمة منحصرة فيما يسأل عنه مما شاهده ببصره، أو سمعه بسمعه، أو أدركه بعقله، فكل علم داخل فيها وعنها يكون)[5].

وهذا الدليل النقلي استدل به كذلك الفقهاء والمتكلمين وغيرهم، ويضيف البعض دليلاً آخر، هو قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[6].

أما ابن خلدون فجعل كل معرفة يكتسبها الإنسان حاصلة من تلك الطرق ومحصلة بتلك الوسائل واستدل بنص آخر (ما حصل له بعد ذلك فهو بما جعل الله له من مدارك الحس والأفئدة التي هي الفكر، قال تعالى: في الامتنان علينا[7]: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾[8].

فهذه النّصوص وغيرها (تبين أنّ في الإنسان قوى مدركة للأشياء، وأنّ من هذه القوى السمع والبصر والقلب أي العقل)[9]، وهذا ما أكده بقوله: (فالبصر هو ما يدرك به جميع المبصرات، والسمع هو ما يسمع به جميع 1- ابن تومرت: أعز مايطلب، ص32

2- طرق العلم عند الرّازي ثلاثة وهي: الحس والخبر والنظر، التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، 1398هـ/ 1978م ج7، ص311

3- ابن تومرت: المصدر السابق، ص30

4- سورة الإسراء، الأية36

5- ابن تومرت: أعز مايطلب، ص180

6- سورة الحج، الآية44

7- المقدمة، ص599

8- سورة السجدة، الآية08

9- محمد عثمان نجاتي: الإدراك الحسي عند ابن سينا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، بلا:تا، ص21

المسموعات من الشرع وغيره، والفؤاد راجع إلى القلب، قال تعالى: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[1] والفؤاد والقلب واحد)[2].

وهكذا يحصر للعلم ثلاث طرق وهي وسائل التعلم منحت لكل الناس بالتساوي، ويجب على الكل استخدامها واستغلالها وتشغيلها لتحصيل العلم والمعرفة، وهكذا يجعل التعليم مبني على مجهود فردي مطلوب من كل شخص تقديم الأسباب واستغلال هذه الوسائل، وكان العلم والمعرفة (الإنسانية تعتمد على هذه القوى، أي أنّها كسبية)[3] هي الأخرى أو مكتسبة وليست معجزة محتكرة لفئة خاصة من الناس متصوفة أو غيرهم.

وهذه الوسائل والآلات هي دائماً نفسها التي يستخدمها الإنسان في تحصيل معارفه، وتنتقل معه عبر أحواله وباختلاف أطواره (وسر هذا أن تعلم أن النفس الإنسانية هي تنشأ بالبدن وبمداركه، فإذا فارقت البدن بنوم أو موت أو صار النّبي حالة الوحي من المدارك البشرية إلى المدارك الملكية فقد صحبت ما كان

معها من المدارك البشرية مجردة عن الجوارح فيدرك بها في ذلك الطور أي شيء شاء منها أرفع من إدراكها وهي في الجسد)[4]، وإنما تزداد قوة الإدراك بها أو تضعف بحسب حال الإنسان عند الانتقال من طور إلى طور، فعند الوحي مثلاً يزيد الله في قوة السمع عند النّبي فيسمع الوحي هو وحده دون سواه، ويزيد في قوة بصره فيرى الملك ولا يراه غيره[5].

1- سورة ق، الآية37

2- ابن تومرت: أعز مايطلب، ص181

3- محمد عثمان نجاتي: الإدراك الحسي، ص21

4- ابن خلدون: المقدمة، ص610

5- المصدر نفسه، ص123- 124